

صبي بن بحور الأنافة

مشاهدات وتأملات

النفس اسفلتان فرحات البناني

٢

المصباح أيضاً ذات يوم ، لما عدت فجلست الي نافذتي المذكورة .
 اتبين ، ما يكفي ان اتبينه من الذين يتسنى لي ان اباهم حينئذ .
 كما رأيت غيرهم من قبل ، بحيث تتولد لي من هذه المرئيات ،
 لذة التفكير في جميع ادوار هذه الحياة الدنيا ، فأسرني بذلك عني بعض ما بي
 في وحدتي ، من سؤم وضجر .

فبينما انا محجذ حافظتي ، في استرجاع ذكرى الساعات الخاليات ، ومستسلم الي
 تيار النفس الطساحة الي التعرف ، الي طباع كل من ممثلي ادوار رواية هذه
 الحياة ، فرق مسرح هذا الوجود المجيب . واذا بصوت مستطير ، قد خرق اذني
 فرصل الي صميم فؤادي ، حتى كاد ييكيني عليه رحمة وشفقة . وهو رجل ،
 عليه اهدام بالية ، يحال للراني ان اعوامه قد نيفت على الاربعين ، وقد تملكه
 الجوع ، ونال منه الظأ ، يحجب كيداً وعى فيه فضلات المحسنين اليه . وييده
 عصاً يستدل بها على سوا السيل . وذلك لان الطبيعة ، أبت ألا ان تعامله
 بالجور والظلم . فقد افقدته نور بصره ، فامسى عمياً عنها ، محروماً لذة مرأى
 جمالها الرائع ، واكفها قد عوضته من ذلك نور البسيرة ، فكان يستطير اخوته
 البشر ، كسرة خبز ، او بعض دربهات ، يبتاع بها ، ما يسد به الرمق ، ويؤود
 به عنه الطوى ، فاستوقفته تحت نافذتي ، وقت الي درجي وجنته بما
 استطعت ان اتحلي عنه ، وهو بعض دربهات ، يعتان بها على شراء ما يمك به
 النفس . فما ان نفخته بها ، حتى اطلق لسانه بالشكر لي والشناء علي بعبارات
 كانت تحال الي انها صادرة من صميم فؤاده ، الذي كوته الفاقة بناها المحرقة ،
 وسطت عليه ذئاب الحاجة القسوى ، حتى اوشكت ان تزقه بانايها الحادة ،

وما زال يدعو الى الله لينزول بركاته عليّ ، حتى وصل من تسياره ، الى باب احد الاغنياء ، الذي قد انعمت عليه الطبيعة بمالٍ وفير ، وما زالت تريده ، حتى بطر في سعة عيشه وغرق في بحر ترفه وملذاته ، فقامى عن معرفة الاخفاء ، واستهتر في ازدراء البؤساء . فامسى ، والحالة هذه ، هدفاً لالسنه الناقدين ، فلا يكاد يراه من الجانب الواحد احد ممن تعرفوا اليه ، وخبروا طويته ؛ ويرى من الجانب الآخر ذلك الفقير اليانس يتندي اكف ذوي المروءة والمعروف ، بكلام يفتت الابدان حزناً ، حتى يتنى لو ان الطبيعة كانت عدلت بين الاثنين بتوزيع الحظوظ ، فوهبت ذلك الفقير نور البصر ، فوق ما وهبت من نور البصيرة . وهذا النبي نور البصيرة ، فوق ما وهبت من نور البصر . اذن لما كنا نرى ان ذلك يكبر في شظف العيش ، وهذا يمرح في مجبوخته . بل كان لذلك استطاعة ان يحصل عيشه ، ويأكل لقمته مريئاً ، لما اوتيه من ذكاء وفطنة وطيب سريرة ، دون ان يزغج الحواطر ، بصراخه واستعطائه على هذا الشكل ، الذي يلج القلب ، ويكوي الفؤاد . ولكان لهذا اعني النبي - ان يتركى من ماله ، ولا يولي من يقرع بابه لعوز او فاقة ، قرع الصا . بل كان كلما سأله سائل اعطاه ، وكلما مرّ به بانس آساه . لانه يستطيع ان يتبين حالة البائس برأى العين ، ويشعر باضطرابه الى بعض ما يمك به نفسه .

واذن فقد كان وصول هذا الفقير الى باب النبي المذكور ، مدعاة لان يُربني ما تاباه المروءة والسخاء ، وينكره الاحسان ، وينفر منه اللطف ، وتستهجنه الشفقة ، وتبجج الانسانية . فما كاد يقرع عليه بابه ، ويطلب منه احساناً ، حتى ظهر عليه بلاجه الفاجرة ، متشامخاً بصباحه ، بادياً علامة الاشتزاز من مرأى اطماره البالية . ثم احتدم عليه غضباً ، ورفع عقيرته عليه بالتقريع والشتم . واذن فكان ان ذهب هذا الفقير متعثراً في اذيال الحية ، كما ذهب نظراؤه عن باب ذلك النبي ، وقد انعم الحزن قلبه حتى طمغ به فتدفقت فضلاته من عينيه ، وهو يأل الله ان يلين قلوب اخوته البشر المرسرين ، على ذوي الفاقة ، بكلها تصحبها تاوهات تقطر حزناً ، وزفرات ملوّه من الاسى والشجو . قائلاً : اللهم انت موئل البائس ، ومرجع اليانس ، اليك ارفع

تضرعاتي ، لكي تمدد في توزيع الحظوظ . لانك مصدر العدل ، ومنيع الرحمة والاحسان . وما زال ينطق بمثل هذه المبارات فتخرق الفضاء الى الخالق الاسمى ، حتى توارى غي ، وراه احدى النيات الفخمة . الا ان صدى صراخه وتضرعاته ، لم يزل يرن في اذني ، ومثاله مصور نصب عيني ، فلم يعني ؛ والحالة هذه ؛ ألا ان ذرقت دمة لم اعلم ما هي ، ولا ماذا استيها ، ادمعة حنان على الفقير ، ام دمة خوف من التقدير ؟ ام هي تلك الدمة التي يتذرفها المرء عند ما يرى مثل هذه المأساة المحزنة ، بحيث لا يمالك ان يجيبها عندئذٍ ضمن مأقيه . وكيفما كان من امرها ، فاني اعلم انها دمة ، يوشحها القلب المكور ، وان لم يعتمد ذلك ، بل تكاد تكون في الانسان طبعاً ، فهي كالمصير الذي تنضجه الجنة عند ما تقلم . واذن فهي في الجنة دمة القلم ، وفي الانسان دمة الكلم . قلت : كفاني ما رأيت في هذا الصباح ، مما اثار شجوني ، وضرمت في فوادي نار الاسى . فاخذت يراعتي ، وخلوت بنفسي ، وكبت لك ، ايها القارى الكريم ، هذه الكلمة التي تقرأها الآن ، وهي تكاد تكون صورة مصغرة لسوم الفقراء البائسين ؛ اللهم من دون الممى ؛ مع الكثيرين من الاغنياء . في هذه البلاد ، الذين لم يفهموا للرحمة معنى ، ولا للشفقة اسأ .

قلت الكثيرين ، ولم اقل الكل استثناء ؛ بعضهم ، الذين ما زالوا يردفون بالبائس ، ويطلقون عليه ؛ يؤلمهم بكاؤه ، ويلجهم صراخه . فلهؤلاء الاقلية ، الف شكر واحترام . ويا ليت جميع البشر يطمون انهم كلهم اخوة ، اذا لما كنا نسمع مثل هذا الصراخ الذي يستذرف المبرات ، ويديمى الاثثة . وانهم بالحقيقة كذلك ، لو كانوا يدرون . لانهم جيلوا من طينة واحدة ، وهم من خلق واحد ، وهم التقدير ، وقد دعاهم المخاص اخوة : كلكم اخوة . ولكن قد اظلمت قلوب الكثيرين ، وخلت من كل ميكة من الحنان على الفقير . وصمت آذانهم عن سماع صراخه المر .

واذن فهؤلاء هم الذين يصدق فيهم معنى قول المخلص : لهم اعين ، ولا ينظرون ؛ وقلوب ، ولا يفهمون ؛ وآذان ، ولا يسمعون . ومن تحتمق فيهم معنى هذا الكلام المقدس ، كانوا ، ولا شك ، مردولين من افه ومن الناس .